

جواب سؤال

الدولة العميقة

السؤال:

انتشر تداول مصطلح الدولة العميقة عند السياسيين وفي وسائل الإعلام، ولكن بمتابعة تلك الأقوال يتبين أنها مختلفة، فهل يمكن توضيح المعنى الراجح لهذه المسألة لنتمكن من فهم الوقائع السياسية ذات العلاقة بهذا المصطلح مع ذكر بعض الأمثلة لزيادة التوضيح.. والمعذرة إن كان طربي هذه الأمثلة يشغلكم عما تقومون به من أعمال أكثر أهمية وشأنا، ولكم الشكر.

الجواب:

نعم إن هناك اختلافاً في ما ينشر عن مصطلح الدولة العميقة، فمنهم من يجعلها تعني الطبقات النافذة التي ليست في الحكم، فتعمل سراً ضد النظام القائم، كما كان يحدث في تركيا.. ومنهم من يجعلها القوة المتحركة في النظام، فتسوس البلاد عندما تريد وإذا ظهرت مشكلة تريد أن تلصق بغيرها فتترك الحكم وتأتي بأخرى تلبسها المشكلة ثم تعود للحكم من جديد، كما يحدث في بريطانيا.. ومنهم من يجعلها صراعاً بين الأحزاب الفاعلة كما يحدث حالياً في عهد ترامب في أمريكا.. ومنهم من يجعلها كالشماعة يعلق عليها ثغرات حكمه وفشله، فيلحق هذا بما يسميه الدولة العميقة.. ومنهم من يتلاعب بهذا اللفظ كلما أراد أن يشغل الناس بأمر ما، فيذكره بلفظه أو بألفاظ أخرى.. ومنهم من يجعل الدول الاستعمارية هي الدولة العميقة في مستعمراتها.. وحتى يتبين المعنى الراجح في المسألة نستعرض الأمور التالية:

الأمر الأول: بعض التعاريف الواردة عن الدولة العميقة:

١- يصف قاموس ويبستر، أحد أقدم القواميس في العالم، الدولة العميقة على أنها: (شبكة سرية مزعومة من المسؤولين الحكوميين غير المنتخبين بشكل خاص وأحياناً الكيانات الخاصة التي تعمل خارج القانون للتأثير على سياسة الحكومة وعلى تنفيذها. وهذا يعني أنه في ظل الأنظمة والدستور توجد قوة أعمق تسيطر على الأمة. هذه القوة لها أجندتها الخاصة ويمكنها تفويض قرارات الحكومة المنتخبة).

٢- وجاء في ويكيبيديا: (الدولة العميقة في تركيا تعرف "بالتركية: derin devlet" بأنها مجموعة من التحالفات المؤثرة المعادية للديمقراطية داخل الهيكل السياسي التركي وتتكون من عناصر رفيعة المستوى ضمن أجهزة الاستخبارات الداخلية والخارجية والجيش التركي ووكالات الأمن والسلطة القضائية والمافيا... تاريخياً تم استخدام العنف ووسائل الضغط الأخرى بشكل سري إلى حد كبير للتلاعب بالنخب السياسية والاقتصادية وضمان تلبية مصالح معينة ضمن الإطار "الديمقراطي الظاهري" للمشاهد السياسي).

٣- وبالتدقيق فيما يقصده هؤلاء بمصطلح الدولة العميقة نجد المعنى في وجود قوة خفية داخل جهاز الدولة أو خارجه تتحكم بالنظام السياسي، أي تفرض سياساتها وآراءها وتوجهاتها على السياسيين المنتخبين بشكل قانوني... وهذه القوة الخفية عبارة عن شبكة منظمة من الأشخاص تخترق المراكز الحساسة كالقوى العسكرية والأمنية والسياسية، وتعمل بشكل مستقل عن الحكومة المنتخبة... وأحياناً تستخدم مصطلحات مختلفة للإشارة إلى هذه الشبكة... مثل "الدولة العميقة"، أو "الدولة الموازية"، أو "الدولة الظل"، أو "الدولة داخل الدولة"...

٤- وهناك تعريف آخر مغاير يطلقه السياسي المهزوم أو المنهزم في الحكم أو الانتخابات، يتخذه شماعة يعلق عليها فشله في الحكم أو الانتخابات.. وبعبارة أخرى فهو مفهوم مضلل، ويستخدم لتبرئة الحكام في حالة انتشار الفساد والظلم في البلد أو ارتكاب الخيانات، فهو خدعة من الحاكم يلقي فيها اللوم على أشخاص في الخفاء يسميهم الدولة العميقة، ومن ثم يضلّل الناس عن كونه المسئول ويجب تغييره.

٥- وهناك القول بأن الدول الاستعمارية هي الدولة العميقة في مستعمراتها فهي تتحكم في أنظمة مستعمراتها فتبقي هذا الحاكم وتزيل ذاك.

الأمر الثاني: التعريف الراجح

١- وبالتدقيق في هذه التعاريف وتدبر ما جاء فيها فإن التعريف الأرجح هو أن الدولة العميقة في بلد ما تعني أن هناك قوة مؤثرة سواء أكانت قوى سياسية أم اقتصادية أم عائلات أرستقراطية نافذة من أهل تلك البلد في الداخل أو في الخارج.. ليست رسمياً في أجهزة الحكم وإنما هي تؤثر في الدولة في الخفاء أو في السر.. ويكون لها ضغط مؤثر فاعل على أجهزة الحكم الرسمية لتنفيذ ما تريد، أو تغييرها.

٢- أما تضليل الناس من الحاكم لإبعاد تهمة الفساد عنه وإصاقها بجهة أخرى يسميها الدولة العميقة، أي شماعة يعلق عليها سوء فعالة في الحكم وفساده، فتسمية هذا التضليل بالدولة العميقة ليس صواباً، وذلك لأنها خديعة من صنع الحاكم وليست من جهات أخرى ضده.

٣- وأما اعتبار الدول الاستعمارية هي الدولة العميقة فهو كذلك مجانب للصواب لأن الدول الاستعمارية هي التي تتحكم في مستعمراتها وهي أجنبية عنها وليست قوى أخرى من أهل البلاد تعمل في السر خفية عن القوى المنتخبة الحاكمة التي هي أيضاً من أهل البلاد.

الأمر الثالث: أمثلة لاستعراض الدولة العميقة في بعض الدول زيادة في التوضيح:

١- تركيا

أ- إن منشأ مصطلح الدولة العميقة قد خرج من تركيا. ففي نهاية الدولة العثمانية قام ضباط ينتمون لجماعة الاتحاد والترقي الذين تأثروا بالأفكار الغربية بانقلاب عام ١٩٠٩ وأطاحوا بالخليفة عبد الحميد الثاني وعينوا أخاه محمد رشاد خليفة بصلاحيته دون صلاحيتهم. * فكانت هذه بداية ظهور طبقة أقوى من الخليفة وتؤثر في بقائه أو سقوطه بشكل ظاهر وليس خفياً، ولكن لم يسقطوا الخلافة والحكم بالإسلام. فهم في الحقيقة ليسوا دولة داخل دولة أي بمعنى دولة عميقة خفية، فهم في الدولة ظاهرون، ولكنهم متسلطون على الحكم.

ب- وبعد الحرب العالمية الأولى تمكن مصطفى كمال الموالى للإنجليز من السيطرة على الحكم ومن ثم تمكن من هدم الخلافة وإسقاط الشريعة والعمل بقوانينها، وقد أعلن الجمهورية وبنائها على أسس علمانية وقام بانقلاباته على الحكم بالإسلام، بل وعلى مظاهر الإسلام مثل ما يعرف بانقلاب "الحرف" وهو تغيير أحرف اللغة التركية من عربية إلى لاتينية، أو انقلاب "اللباس" الشرعي ليحل محله اللباس الغربي وغير ذلك.. وهكذا أسس الجيش والقوى الأمنية بمقاييس معينة لحماية الجمهورية والعلمانية، ولمنع عودة الإسلام إلى الحكم وإقامة الخلافة من جديد.. فأصبح الجيش قوة مسلطة على الحكم يتدخل كلما رأى أن هناك انحرافاً عن الكمالية بجانب الحفاظ على التبعية لبريطانيا.. وكان طغيان الحكم الكمالي والدعم البريطاني حائلين دون ظهور دولة عميقة ضد هذا الحكم.

ج- ولما جاء أردوغان لحكم تركيا بزخم نتائج صندوق الانتخابات، وبدعم أمريكي سياسي ومالي واقتصادي، كان يدرك قوة جنرالات الجيش حراس العلمانية التابعين للإنجليز وأنهم يمثلون عصب الدولة ويمكنهم إن شأؤوا الانقلاب عليه، لذلك كان يعلي من قيم الديمقراطية والحرية ويحاصرهم بقوة الشرعية الشعبية لمنعهم من الانقلاب عليه، وكانت أمريكا تُسبّل لعب الأتراك عبر شرايينها المالية والاقتصادية، وكان أردوغان يهاب من هؤلاء العسكر ولا يقوى على إقالتهم لكثرتهم وتمكنهم من عصب الجيش عبر سنين، لكنه سرعان ما أوجد واقعاً جديداً في الحياة التركية عنوانه البارز "الديمقراطية" والنجاح الاقتصادي، فشكل ذلك مانعاً من الانقلاب.

* وأثناء هذه الفترة فقد كان الوصف بوجود "دولة عميقة" في تركيا تعمل في الخفاء من داخل أجهزة الدولة وخاصة الجيش فتمانع وتعارض وتحاول أن تفشل توجهات رئيس الوزراء المنتخب أردوغان، كان وصفاً صحيحاً، وكان هؤلاء بمثابة شبكة لا تظهر معالمها لأصحاب النظرة السطحية الذين يظنون بأن الأمور تسير بشكل مثالي وأن الجميع ملتزمون بالدستور والقانون، وهذه الشبكة التركية بالإضافة إلى عشعشتها داخل أجهزة الجيش والقضاء والوزارات كانت متصلة بالأحزاب العلمانية التي كانت خارج الدولة وتمثل المعارضة، وكانت متصلة بالمركز في لندن، فكان رجالها يجتمعون سرّاً ويتشاورون ويتداولون مسائل نظام حكم أردوغان حتى قرروا القيام بانقلاب سنة ٢٠١٦ إلا أنه كان غير ناجح، ومن ثم اتخذ أردوغان من ذلك مبرراً فقام باجتثاثهم من الجيش، ومعهم أتباعهم من القضاء والوزارات حتى وصلت عملية التطهير أساتذة الجامعات، وبذلك نجح أردوغان في اجتثاث الدولة العميقة التابعة للإنجليز داخل الجيش التركي وأوشك على إنهاء وجودها، ولكن بقي لهم أتباع، وإن كانوا أضعف من ذي قبل، يحاولون إعادة سيرة وصف "الدولة العميقة" في وجه النظام.

٢- الولايات المتحدة

أ- إن الحكم في أمريكا ينقسم إلى مستويين فعليين، حيث يظهر المستوى الأول ممثلاً للشرعية الشعبية عاملاً لتحقيق إرادة الشعب الذي انتخب هذا الرئيس وهؤلاء النواب، فيكون مظهر الدولة مظهراً "ديمقراطياً"، ولكن هذا المستوى الشرعي لا يمكنه قيادة سياسات البلاد إلا وفق ما يريده المستوى الثاني، وهو مستوى باطن غير ظاهر وغير منتخب، أي غير شرعي وفق النظام "الديمقراطي"، وهو ما يطلقون عليه "الدولة العميقة"، وأفراد هذا المستوى، أي ممثلو الدولة العميقة هم أشخاص يحتلون مناصب حساسة في أجهزة الدولة، ولا يمكن للأجهزة التي يسيطرون عليها أن تندفع وفق توجهات المستوى الأول إلا عن طريقهم، لأن مراكزهم حساسة، وهؤلاء الأشخاص في أمريكا هم إما من كبار الرأسماليين أو ممثلين عنهم، إذ يحرص كبار الرأسماليين في أمريكا على أن يكون كبار الموظفين في أجهزة الدولة يدافعون عن مصالحهم، ويبقوا على ارتباط مستمر بهؤلاء الموظفين من أجل تسيير مصالحهم، فمثلاً تحرص شركات المال على أن يكون لهم أتباع من موظفي دوائر الضريبة، فيما تحرص شركات الأسلحة على أن يكون لهم أتباع في البنتاغون ودوائر التعاقدات العسكرية في وزارة الخارجية، وتحرص شركات الأدوية على أن يكون لهم أتباع في دوائر وزارة الصحة ودوائر التأمين الحكومية، وهكذا ومع مرور وقت طويل فقد نجحت الشركات الكبرى بالسيطرة الفعلية على الدولة في أمريكا عبر هؤلاء الموظفين في المراكز الحساسة وعبر لوبيات الضغط.

ب- هذه هي حقيقة النظام السياسي في أمريكا، وعليه فإن كبار الرأسماليين والشركات الكبرى هم منبت الدولة العميقة في أمريكا وجذرها الحي، وهي القوة الكامنة المخفية التي تقف خلف التوجهات السياسية للدولة، وهي التي تحرك الموظفين في المناصب الحساسة لمناهضة توجهات الدولة إذا خالفت مصالح تلك الشركات، وهي بهذا الوصف تقع خارج جهاز الدولة وداخله وتنشط في قطاع المال والأعمال والصناعة، ولكن حركتها تظهر داخل أجهزة الدولة في أمريكا.

ج- ولما جاء دونالد ترامب سنة ٢٠١٦ رئيساً وجد أمامه تمللاً من كبار موظفي الدولة والوكالات المختلفة خاصة الوكالات

الأمنية، وأحس بممانعتهم لسياساته ومعارضتهم لها، ثم تطورت إلى مقاومة شديدة من داخل الدولة في أمريكا أشبه بالعصيان، وكثرت عمليات تسريب المعلومات المخرجة له من أجهزة الأمن والمخابرات... ثم رفعت ضده قضايا كثيرة أشهرها الدعم الروسي له في الانتخابات، واثارت التحقيقات ومحاولات العزل في الكونغرس حتى صارت وزارة العدل الأمريكية من أشد أعدائه بشكل مكشوف، ولم يكن الهجوم عليه من داخل الدولة فقط، فقد امتنعت شركات الأدوية التي توصلت لاكتشاف لقاح كورونا عن الإعلان عن هذه الاكتشافات إلا بعد الإعلان عن فوز بايدن بالانتخابات نهاية سنة ٢٠٢٠، أي لمنع استفادة ترامب انتخابياً من تلك الاكتشافات.. ثم إن الرئيس ونتيجة معاناته مع هذه القوة الخفية المنظمة التي تعمل ضده قد شكك بنتيجة الانتخابات ولم يعترف بها واعتبرها مزورة وأن الفوز قد سرق منه وأضاف لجنة الانتخابات الحكومية إلى قائمة أعدائه. وقال ترامب بعد خروجه من الرئاسة أمام حشد من أنصاره في تكساس عام ٢٠٢٣: "إما أن تدمر الدولة العميقة أمريكا أو ندمر الدولة العميقة". وبالتدقيق في هذا الواقع الأمريكي أثناء إدارة ترامب الأولى وذلك الوصف بوجود قوة خفية في أمريكا تمنع الرئيس المنتخب من التغيير نجد أن هذا الوصف هو وصف لواقع حقيقي في نظام الحكم في أمريكا.

د- وفي ٢١ آذار/مارس ٢٠٢٣، أعلن ترامب في مقطع فيديو عن خطة من ١٠ نقاط وقال في الفيديو: ("ب هذه الطريقة سأحطم الدولة العميقة وأعيد الحكومة لتكون تحت سيطرة الشعب ومن أجل الشعب"... ديلي ميل البريطانية، ٢١/٣/٢٠٢٣).

هذه هي حقيقة النظام السياسي في أمريكا، وعليه فإن كبار الرأسماليين والشركات الكبرى هم منبت الدولة العميقة في أمريكا وجذرها الحي، وهي القوة الكامنة المخفية التي تقف خلف التوجهات السياسية للدولة، وهي التي تحرك الموظفين في المناصب الحساسة لمناهضة توجهات الدولة إذا خالفت مصالح تلك الشركات، وهي بهذا الوصف تقع خارج جهاز الدولة وداخله وتنشط في قطاع المال والأعمال والصناعة، ولكن حركتها تظهر داخل أجهزة الدولة في أمريكا.

٣- بريطانيا

وأما بريطانيا، ففيها دولة عميقة، وذلك أن نظام الحكم فيها إنما يمثلها المحافظون، وهم عائلات بريطانية الأرستقراطية وكبار أغنيائها، وهم حكام بريطانيا الحقيقيون، ولكن توجهاتهم المعلنة توصل الدولة في بعض الأحيان إلى الأزمات، أي أنها تضر أحياناً بمصالح الدولة لذلك يقوم حزب المحافظين بالاستراحة ويحكم البلاد حزب العمال، فتكون مهمة حزب العمال حل الأزمات ووقف الإضرار بمصالح الدولة، ثم يتنحى، وما شاهدناه في الفترة الأخيرة من هزيمة مدوية لحزب المحافظين وفوز كاسح لحزب العمال إنما هو من صنعة المحافظين، فبريطانيا بعد "بريكست" تمر بأزمة اقتصادية شديدة، بل إن خروجها من الاتحاد الأوروبي كان نتيجة حساباتها الخاطئة في الاستفتاء البريطاني على أوروبا، ولما كان المحافظون هم من قاموا بصناعة هذه الأزمة والتسبب بها فإن حزب العمال اليوم مطلوب منه أن يعالجها.

فالدولة العميقة في بريطانيا هي العائلات العريقة والأغنياء، وهم حكام بريطانيا دائماً، وإذا تنحوا جانباً وجاءوا بحزب العمال فمن أجل حل أزمة تسبب بها المحافظون، و"الدولة العميقة" في بريطانيا تسيطر على الحكم سيطرة سهلة وسلسلة، بمعنى أن عائلات بريطانيا العريقة وأغنياءها هم منبت الحكم وحراسه سواء أكانوا يمارسونه أم أنهم "استأجروا" حزباً آخر ليمارسه، ولأجل استمرار تلك السيطرة بتلك السلاسة والسهولة فإن "منبت الحكم الفاعل" في بريطانيا و"جذرها الحي" ييئ القيم التي ترفض التغيير فتعلي من شأن العراقة والاعتزاز بالقديم.. وهذا ما يلاحظ في بريطانيا من شدة الاهتمام الشعبي بالعائلة المالكة وأخبارها وقصصها وأعياد ميلاد أمرائها وطريقة معيشتها...!

* الدولة العميقة هي قوة مؤثرة في الحكم القائم وأنها شبكة من أهل البلد في الداخل أو في الخارج، تعمل سراً أو في الخفاء ضد الطبقة الحاكمة في ذلك البلد لتغييرها أو إضعافها.

* أما إذا كانت هذه الشبكة ليست من أهل ذلك البلد بل كانت قوة أجنبية عنه مثلاً دولة استعمارية تعمل ضده، أو دولة معادية ضده، فهذه القوى لا تعتبر دولة عميقة، بل يندرج بحثها في باب الاستعمار أو الحرب والعدوان.

* وكذلك إذا كانت هذه الشبكة معدة من الطبقة الحاكمة بأن ينسب إليها العمل ضد الدولة ومخططاتها لإبعاد التهمة عن الحاكم ونقلها إلى شبكة وهمية من صنعه من باب خداع الناس عن فساد الحاكم وعجزه فكذلك لا تعتبر هذه دولة عميقة.

* وخلاصة الخلاصة أنها شبكة من أهل البلد في الداخل أو الخارج تعمل ضد النظام القائم في ذلك البلد لتغييره أو إضعافه، وبهذا المعنى فهي لا تكون إلا في الدول التي تحتكم إلى القوانين الوضعية، حيث يتأتى أن يكون فيها شبكات في الداخل أو في الخارج تختلف في نوع الحكم الذي تريد فيحدث التنازع بينها في نوع الحكم الوضعي المطلوب.

* أما إذا كان الحكم قائماً على تشريع من رب العالمين، فالمسلمون سواء أكانوا في الداخل أم كانوا في الخارج، فلا يكون بينهم دولة عميقة تعمل لتغيير حكم الإسلام بأحكام أخرى مختلفة، إلا أن يكون المسلمون العاملون في الداخل أو الخارج مدفوعين بقوة خارجية مستعمرة أو عدوانية وفي هاتين الحالتين لا تكون دولة عميقة كما ذكرنا آنفاً.

ولذلك فما يلاحظ من تغيرات أو انقلابات في بعض بلاد المسلمين كما حدث أو ما يحدث في باكستان أو بنغلادش أو مصر... إلخ، فلا توصف الجهات وراء تلك الانقلابات بأنها دولة عميقة لأن الاستعمار هو الذي يحرك الأحداث في الدول العميلة له.

* أما إذا كانت هناك حركة في بلاد المسلمين التي تحتكم للقانون الوضعي، وهذه الحركة تعمل لتغيير الحكم الوضعي في بلاد المسلمين إلى حكم الإسلام، الخلافة الراشدة، فهذه الحركة لا تسمى دولة عميقة، بل أهل نصرة الله سبحانه ورسوله ﷺ.

وإننا لنسأل الله سبحانه العون والتوفيق لإقامة الخلافة الراشدة من جديد فيعز الإسلام والمسلمون ويذل الكفر والكافرون: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾

السادس من ذي القعدة ١٤٤٦هـ

٢٠٢٥/٥/٤م